

تدبير القرآن في رمضان اليوم رقم 16

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم سنتدبر بقية سور المرحلة المدنية الثانية / مرحلة فرض القتال والاستعداد لحرب قريش، والسور، هي: المائدة، الماعون، محمد، والصف. والبداية مع المائدة التي تعتبر امتداداً لسورتي البقرة والنساء، وتستكمل التشريعات وتتحدث عن نفس المواضيع، وتؤكد الصور الاجتماعية التي قدمتها السورتين قبيل معركة بدر. كما تتشابه معهما في كثرة المواضيع التي تتناولها السورة، وكثرة تنقل الآيات بين هذه المواضيع.

وسورة المائدة هي سابع سورة تنزل في المدينة، ومع ذلك فهي آخر سورة تفرض فيها التشريعات باختلافها، برغم أنه نزل بعدها 18 سورة، تخلوا من التشريعات وتتناول الأحداث التي يمر بها المسلمون في دولة الإسلام. أما ما ورد في سورتي الأحزاب والنور اللتين سنمر بهما فيما بعد، فهي عقوبات رادعة للقضاء على ظاهرة فرضتها أحداث وقعت أثناء حفر الخندق. وكلها عقوبات رادعة لتطهير المجتمع من ظاهرة غريبة ما كان يجب أن تظهر في مجتمع مسلم، كما سنرى. وشبيه لها بدرجة أقل ما ورد في سورة براءة.

والآية الثالثة تعلن أن سورة المائدة هي بالفعل آخر سور القرآن فرضاً للتشريع: {.... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {3}.

الآية تقول لقد اكتملت التشريعات، ومن اضطر لمخالفة أي منها ولم يعتمد المخالفة فلا إثم عليه. ((في المقابل من يقترب كبيرة بعد اليوم وهو يعلم، أو يقترب كبيرة ويستمر عليها، فهو في النار، كما ذكرت سور سابقة))

وآخر السورة تأكيد مرة أخرى على أن هذه السورة ختام التشريعات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} {101} المائدة.

لقد اكتملت التشريعات، ومن خالفها مضطراً فلا إثم عليه. ومن لم يسمع بحكم عن أي مسألة أخرى، فلا يسأل عنه. لأن سؤال الرسول يحتم نزول الوحي بحكم شرعي كجواب للسؤال. ومتى نزل حكم شرعي فهو ملزم، في وقت كان يمكن ألا يسأل عنه، وليتصرف كل شخص حياله بما تمليه عليه نفسه. ((إذاً، حكم الله يقول: لا سؤال عن أي مسألة بعد اليوم. وما لم يذكره القرآن فاستفت قلبك. إن كرهته فلا تفعله وإن استسغته فهو مباح))

لاحظ أن السورة تقول أن التشريعات أقيمت في بداية السورة ثم تسرد عدة تشريعات، هو أسلوب القرآن

وتبدأ المائدة بالتأكيد على قانون إسلامي مغيب تماماً في عصرنا الحاضر، ولا يلقى أي احترام أو اهتمام من الغالبية الساحقة من المسلمين بينما قدسه الغير مسلمين، وهو الوفاء بالعقود والمواثيق والعهود: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ {1}.

فالوفاء بالعهود والمواثيق – الفردية والجماعية وعلى مستوى الدولة – قانون إلهي، هجره وتركه، كبيرة موجبة لجهنم. وقد فرض هذا القانون الإلهي الهام في مكة: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً} {34} بني إسرائيل. وكررت سور عدة تأكيد الوفاء به.

والآية الثانية في سورة المائدة تؤكد أيضاً أن الأصل في لحوم بهيمة الأنعام الحل، إلا ما فيه نص تحريم. وتؤكد تحريم الصيد وأشياء أخرى أثناء الإحرام: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {2}.

الآية تقول للمسلمين ألا يعتدوا لأن قريش اعتدت عليهم ومنعتهم من دخول المسجد الحرام منذ أواخر أيامهم في مكة قبيل الهجرة، كما ذكرت سورة الحج.

وتنتقل السورة للحديث عما يحرم من المأكَل، وهو ما سبق وفرضته سورة النحل المكية: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {115}.

وكررت سورة البقرة حرفياً: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {173}.

لكن سورة المائدة تعطي بعض التفاصيل: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {3}.

فالآية تعطي تفاصيل للمقصود بالمدينة، وقد تكون إجابة لأسئلة سألها البعض رسول الله، فجاءت الآية بالإجابة التفصيلية. كما أضافت السورة أن ما أكل السبع حرام، لكن لو تمكنوا من تذكيتهما فهي حلال. وتحرم السورة عادات وثنية، هي:

ما ذبح على النصب (عادة تقرب القرابين للأصنام).

الاستقسام بالأزلام (عادة قدح أحجار معينة للتناول أو التشاؤم). ويدخل في هذا أي تصرف للتناول أو التشاؤم، وما أكثره بيننا اليوم. حيث نجد من يكتب على بيته عبارة (ما شاء الله تبارك الله) والاعتقاد بالعين من التشاؤم المحرم.

وتخاطب الآية المسلمين: "الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا". لقد أصبح للمسلمين دولة وكيان وتشريعات وعبادات، ومنعة وعزة، وقد ينس الكفار (قريش) من القضاء عليكم. فهي آية تعلن نهاية فرض التشريعات، ولا تعني أنها آخر آية نزلت في القرآن كما يزعم المفسرون والمحدثون.

وتستمر السورة بالحديث عن المأكّل، لتجيب على بعض أسئلة المسلمين: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {4} الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {5}.

الطيبات تعني ما لا يكره عادة.

كما أن طعام أهل الكتاب حلال. (وهم يكون الذبيحة ولا يذبحون للأصنام مثل قريش).

كما يجوز أن يتزوج المسلم وقت نزول السورة من الكتابيات في يثرب. وأهل الكتاب هنا (قد تعني) بني إسرائيل، لكن ليس اليهود أو النصارى، لأن هناك فارق هام. فبني إسرائيل يؤمنون بالله وبموسى رسول الله وليس لديهم معتقدات وثنية، وإن كانت معتقداتهم تعتمد على تشريعات بشرية قال بها رجال دينهم، وتركوا غالب ما في التوراة. أما اليهود فهم فرقة ضالة ظهرت بعد موسى. والنصارى في يثرب عند نزول السورة، إما موحدون وينتمون لأتباع عيسى، وهؤلاء

ينطبق عليهم ما ينطبق على بني إسرائيل. أو ممن يقول بالتثليث أو أن عيسى ابن الله أو إله مع الله.

الآية لا تذكر أن المرأة المسلمة حينها يجوز لها التزوج برجل من بني إسرائيل.

كما أن السورة نزلت بعد سورة البقرة التي تحرم الزواج بالمشركون والمشركات. فهل هذا يعني أن تحريم الزواج من قريش لأنهم عدو محارب، وليس لأنهم كفار؟

لأن بني إسرائيل بما فيهم اليهود والنصارى كفار بنص القرآن في سورة البقرة والنساء وآل عمران وفي هذه السورة كما سنرى وغيرها، فكيف سمح بالزواج من نسائهم ومنع من نساء قريش؟

أميل شخصياً أن الزواج بغير مسلمة أياً كانت الآن جائز ما لم تكن من دولة معادية للإسلام وفي حال حرب مع دولة الإسلام (لو كان هناك واحدة).

ثم تفرض السورة الوضوء والغسل للصلاة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {6}.

فكما أن السورة فصلت في الآية 3 ما يحرم من الميتة، الوارد في سورة البقرة السابقة 173 ، فإن هذه الآية تفصل ما ورد في الآية 43 من سورة النساء السابقة عن الغسل والتطهر للصلاة.

فالوضوء يكون بغسل الوجه والأيدي إلى المرافق ومسح الرأس، وغسل الأرجل إلى الكعبين. أما الجنب فعليه الغسل، إلا أن يكون مريض أو على سفر. ومن جاءه الغائط أو ما في حكمه (ريح، أو بول) فعليه تنظيف مخرجه بالماء ولا يجزئ غير الماء (مثل ما يسميه المحدثون: الاستنجاء والاستجمار). وفي حال عدم وجود الماء فالتيمم.

وقد ورد ملامسة النساء في هذه الآية وفي سورة النساء أيضاً. ولا أظن أن هذا يعني ما دون الجماع، لأنه ذكر قبله الجنب. بل هو يعني الجماع، لأن الجنب قد يكون بسبب الجماع أو الاحتلام.

وتخاطب السورة المسلمين: وَادْكُرُوا اللَّهَ عَالِمَكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {7}.

الآية دليل على أن الدخول في الإسلام يعني عقد واتفاق وميثاق بين العبد وربّه. يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده بإتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهى إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض لعهد الدخول في الإسلام الذي سبق توقيعه مع الله، شبيه بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسا قويا، كما تقول سورة النحل: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ} {91} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} {92} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنُسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {93}.

وكما تؤكد سورة الرعد أن الدخول في الإسلام عهد طوال الحياة موقع بين العبد وربّه: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} {20} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} {21}.

وتستمر السورة تخاطب المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {8} وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} {9} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} {10}.

برغم كل ما يلقاه المسلمون من قريش من اضطهاد وتعذيب عندما كانوا في مكة، وملاحقة بعد هجرتهم ليثرب إلا أن هذا لا يعطيهم الحق بتجاوز العدل وظلم الناس لأنهم ظلموا. فقوانين القرآن لا تخضع للتبريرات ولا للظروف ولا تتغير بسبب عاطفي. وسيحاسب الله الناس يوم القيامة على أفعالهم في الدنيا، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً له الجنة والكافر له النار.

ثم تذكر السورة واقعة كادت تحدث: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {11}.

تقول الآية أن المسلمين كادوا يتعرضون لهجوم من قوم من خارج يثرب، لكن ولسبب غير واضح تراجعوا وكفى الله المؤمنين شر القتال. ولا ندري هل كانوا من قريش أو من الأعراب حول المدينة أو من غيرهم.

ثم تتجه السورة في الآيات: 12-32 لمخاطبة أهل يثرب من أهل الكتاب بمختلف طوائفهم.

والبداية حديث عن بني إسرائيل زمن موسى، سلف من كان في يثرب في عهد الرسول: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ {12} فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {13}.

وتبين الآية أن الدين واحد وأنهم كانوا مطالبون بالصلاة والزكاة والإيمان برسول الله الآخرين، كما في الإسلام.

لكنهم خانوا ميثاق الله، وحرفوا معاني كتابه (التوراة) وتركوا العمل ببعض ما جاء فيها. وتطلب الآية من الرسول محمد أن يتعامل معهم بتسامح برغم أنهم سيظهرون خيانة لمواثيقهم معه.

ثم تتجه السورة بالحديث عن النصارى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ {14} يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ {15} يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {16} لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {17}.

النصارى عقيدة تسمى بها أناس ظهروا بعد موسى، وبعد عيسى ابن مريم الذي جاء مباشرة بعد موسى للعودة ببني إسرائيل للتوراة. والنصارى بعضهم موحدون، وبعضهم يعتقد أن عيسى هو الله وبعضهم يعتبره ابن الله وبعضهم يعتبره إله مع الله وبعضهم يعتبره وأمه آلهة مع الله. وقد تلاشت عقائدهم ولم يعد لها وجود بعد الإسلام. لإسلام بعضهم وهجرة البعض الآخر وذوبانهم في عقائد أخرى منها المسيحية.

والآيتان: 15-16 تدعوان كل أهل الكتاب في يثرب للإسلام. وهو دليل على أن الله لن يقبل دين آخر غير الإسلام.

ثم تعود الآية 17 لمخاطبة أحد عقائد النصارى بعقلانية، وهم من يعتبر المسيح ابن مريم هو الله.

ثم تخبرنا السورة عن خلاف وقع بين النصارى واليهود في يثرب: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ {18}.

وتقول لهم السورة أن عقائدهم باطلة ومن رغب في الحق فعليه بالإسلام: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {19}.

ثم تذكر السورة ببعض مواقف بني إسرائيل زمن موسى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ {20} يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ {21} قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ {22} قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكُمُ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ {23} قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ {24} قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {25} قَالَ فَإِنَّهَا مُّحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {26}.

والآيات تتحدث عن فترة تلت غرق فرعون، وبعد أن اصطحب موسى 70 رجلاً من بني إسرائيل لميقات ربه (كما تخبرنا سور أخرى)، وبعد أن كتب التوراة، في وادي طوى المقدس – قرب المسجد الحرام – وهو نفس الوادي الذي سبق وتم التكليم فيه. أما بقية بني إسرائيل ونساؤهم وأطفالهم فقد عادوا لمصر بعد أن أصبحت آمنة بعد غرق فرعون.

والآية 21: موسى يطلب من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة. وليس هناك أرض مقدسة غير مكة. وقوله "التي كتب الله لكم" إشارة إلى أنها أصبحت وطناً لأبيهم إبراهيم حيث تزوج ورزق بإسماعيل وإسحاق، وكان من المفترض أن يبقى إسحاق مع أخيه إسماعيل في مكة. ولو فعل فسيكون بني إسرائيل من سكان مكة. لكن مغادرة إسحاق مكة مغاضباً واصطحاب عائلته معه، جعل الأحداث تتوالى بطريقة مختلفة. انتهت بانتقال ابن إسحاق يعقوب (الوحيد على ما يبدو) وأبناءه للعيش بمصر، حيث تناسلوا. ومن ثم تعرضوا للاضطهاد على يد فرعون عندما أصبح ملكاً للبلدة. وقد أرسل له موسى الذي كان قد هرب من مصر قبل عشر سنوات لقتله أحد المصريين. وكان موسى قد خرج بزوجه إلى مكة للحج أو العمرة ثم حصل له التكليم في واد

قريب اسمه لازال قائماً، وهو "طوى". وبعد غرق فرعون أمر الله موسى بالتوجه مرة أخرى لوادي طوى المقدس قرب المسجد الحرام، مع 70 رجلاً من بني إسرائيل. وبعد أن كتب موسى التوراة وعاد لقومه وجدهم يعبدون صنماً على شكل عجل له خوار، صنعه أحد بني إسرائيل واسمه السامري. بعد أن كسر موسى الصنم ورماه في البحر (على ما يبدو هو البحر الأحمر القريب من مكة)، أمر بني إسرائيل بدخول مكة للحج أو العمرة وذكر الله والاستغفار والتوبة لعبادتهم العجل.

وتستمر الآيات تخبرنا أن بني إسرائيل – لكرهم التاريخي – لبني إسماعيل أبو وامتنعوا من دخول مكة، ووصفوا بني إسماعيل بالجبارين. وليس بالضرورة أن يكون بنو إسماعيل كما وصفوا. المهم أن بني إسرائيل برروا عدم دخولهم مكة بتبريرات مختلفة (لأنه ترسخ في ثقافتهم الموروثة بغض مكة التي خرج منها جدّهم إسحاق).

فحكم عليهم بتحريم دخول مكة لأي سبب لمدة 40 سنة، وهو تحريم شرعي وليس تحريم سياسي بحيث يوضع متاريس ونقاط تفتيش عند مداخل مكة لمنع أي إسرائيلي من دخولها. فمن تسلل لمكة فقد ارتكب كبيرة وهو يعلم بحرمتها ومصيره الخلود في النار: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ {26}.

وهذه الآية حرف معناها اليهود بحيث تبدوا وكأنها تتحدث عن تيه في صحراء – ليست قرب مكة – بل بين بلاد النيل وفلسطين الحالية. برغم أنه لا وجود لصحراء في سيناء التي تغطي أراضيها الجبال، وبينها ممرات معروفة. وكعادة موروثة الديني تقبل قصص بني إسرائيل بقبول حسن ورسخها بيننا، بحيث أصبحت حقيقة لا تقبل النقاش. وإلا فموسى لم يعرف فلسطين، ومصر فرعون قرية تقع جنوب غرب جزيرة العرب، ولا علاقة لها ببلاد النيل التي لم تكن تعرف بمصر زمن موسى، ولم تعرف بمصر في كل تاريخها القديم. ولم تسمى مصر إلا بعد أن قام اليهود بترجمة كتبهم الدينية إلى اليونانية، التي كانت لغة حكام الإسكندرية. حيث حرفوا تاريخ العالم وليس فقط بلاد النيل وفلسطين لكي يقولوا أنهم سادة العالم وهم من نسل غير نسل بني عمهم إسماعيل، ولم يكونوا في أرض جزيرة العرب ولم يكونوا عرباً، بل هم عراقيون حضروا لفلسطين وكانوا في بلاد النيل. وبلاد النيل والشام والعراق تمثل الرقي والحضارة في ذلك الوقت بينما جزيرة العرب تمثل بساطة العيش وبدائيتها. ولنا حديث طويل في هذا الموضوع في "أحسن القصص".

ثم تذكرهم السورة بقصة ابني آدم التي يعرفون في الآيات: 27-32: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {27} لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {28} إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ {29} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {30} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَهُ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {31} مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ {32}.

وآدم المذكور هنا هو آدم الذي أخبرنا القرآن بقصة خلقه من تراب وأمر الملائكة بالسجود له، وسكنه في "جنة" جبلية وإخراجه منها عقاباً له على عصيانه. وما يعضد كلامنا أن ابني آدم هنا هم من أبنائه المباشرين، كونهم يتمتعون بصفة موروثية من أبيهم آدم. فهم على سجيبتهم وبرائتهم، وليست لديهم خبرة بحياة الناس الآخرين التي اعتادوها لآلاف السنين. حيث أنه بدت على القاتل الحيرة والارتباك فيما يجب فعله بجثة أخيه القاتل. وهو موقف مشابه لموقف والديه في الجنة بعدما أكلوا من تلك الشجرة المحرمة: "فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَائِهِمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى {121} طه. وكنا قبل ذلك لا يشعران بأن السوء وإن بدت شيء محرج، لبراءتهما المفرطة، وهو ما بدا عليه ولدهما الذي قتل أخاه.

الآية: 32 تقول: " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ " الذين هم سلالة آدم، كما قرئش، كونهم أبناء إبراهيم الذي ينحدر بنسبه من آدم. ويمكن أيضاً أن نستنتج أن بني آدم كانوا يتصفون بالفضائل، ولا يظهر منهم أي جانب شر. ومع تتابع أجيالهم تعلموا إظهار الجانب السيء، وعرفوا الجرائم والردائل، بل احتلوا الدرجة السفلى في الرذيلة وسوء الخلق بين بني البشر: " ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ".

ثم تنتقل السورة لفرض عقوبة: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {33} إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {34}.

وليس هناك إفساد في الأرض أعظم من المكائد ضد دولة الإسلام، لأنه يسعى للقضاء على دين الله، فنزلت الآيات تفرض قانون عقوبة صارم لمن يصدر منه أي دسائس. وقريش تحارب الله ورسوله، وكذلك الحال بالنسبة للمنافقين ولبنی إسرائيل الذين لم يظهرُوا بعد دسائسهم عند نزول السورة. وهذا القانون تم تحويله لحماية الحكام ممن يحاول انتقادهم أو المطالبة بحقوقه التي اغتصبوها، ولم يعد يعمل به كما أنزل الله، لمعاقبة غير المسلمين الذين يسعون في الأرض فساداً بنشر الدعايات المغرضة ضد الإسلام، أو محاولة إفساد الإسلام بأي شكل.

وتتجه السورة مرة أخرى لحث المسلمين على قتال قريش المرتقب، وتقول أن لهم الجنة وللکافرين النار: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {35} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {36} يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ {37}.

ثم تفرض السورة عقوبة أخرى بحق السارق والسارقة: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {38} فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {39}.

وهذه العقوبة وعقوبة من يحارب الله ورسوله، من الواضح أنها للقضاء على ظواهر انتشرت في مجتمع يثرب. وعليه فلا بد أن هناك سرقات منظمة انتشرت، فنزلت السورة لتوقيع عقوبة صارمة بهم للقضاء النهائي على هذه الظاهرة وتطهير المجتمع منها. لأن ترك الحبل على الغارب للسارق يشجعه على التماذي ويجعل غيره يحذو حذوه، لأنه أمن العقوبة، كما يحدث في مجتمعنا.

ثم تتجه الآيات: 41-50 بمخاطبة الرسول عن مواقف لأهل الكتاب في يثرب: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {40} يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {41} سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْتِ فَاِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {42}.

كان الرسول يسمع من المنافقين " الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا " ومن اليهود، كلاماً يزعمه. وهم لم يؤمنوا ويريدون أن يسمعوا من الرسول ما يعجبهم وإلا فلن يستمعوا له. ومع ذلك يأمره القرآن أن يحكم بينهم بأعلى درجات العدل "القسط" أو الاعتذار عن الحكم.

وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ {43} إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ {44}

هنا إشارة إلى أن بني إسرائيل يثرب زمن رسول الله كانوا يحتفظون ببعض تواراة موسى، ولا بد أنها بلغت الأصلية التي نزلت بها "العربية"، لذا كانوا يظهرونها أحياناً للمسلمين ليقرأوها. وما في تلك التوراة هو مطابق لما في القرآن. ومع ذلك يأتون للرسول ويسألونه حكماً لعلمهم يسمعون منه ما يخالف ما في التوراة ليكون دليلاً لهم على كذبه.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ {45} وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ {46} وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {47} وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {48}.

الدين واحد وما قالته التوراة أكده عيسى وجاء به القرآن. والآيات تشير إلى أن عيسى جاء بعد موسى مباشرة: " وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ " الذي أرسل لهم بعد وفاة موسى لإعادتهم للدين الحق الذي دعت له التوراة وتركوه.

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ {49} أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ {50}.

والآيات تحذر الرسول من أن يستميله كلام بني إسرائيل فيظنه صحيح، ويترك الحق المنزل عليه. وهذا يظهر كم أن بني إسرائيل بارعون في القصص الديني (الإسرائيليات) الذي يجذب المستمع ويظنه من عند الله، وليس اختلاق بشري.

ثم تحذر السورة بعض من أعلن إسلامه من يثرب لكنه بقي يوالي اليهود والنصارى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {51} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ {52}.

فمن تولى قوماً فهو منهم، والآيات تتحدث عن منافقين من يثرب أبقوا على موالاة اليهود والنصارى مثلما أبقي "مسلمة قريش" على موالاة المشركين. وكلا الفريقين كَفَرُوا، ولو بقي يعلن إسلامه.

والآيات تصف "مسلمة يثرب" بالذين في قلوبهم مرض.

وتنقل لنا السورة ما يقوله المؤمنون المخلصون من (أهل يثرب) عن مسلمة يثرب: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ {53}. وهذا يعني أنهم معروفون بأشخاصهم للمسلمين.

وتعود السورة لتحذير مسلمة يثرب مرة أخيرة، لعلمهم يعقلون: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {54} إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ {55} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ {56} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ {57} وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ {58}.

وتصفهم السورة بـ"الذين آمنوا" فيما قد يكون لو عادوا للحق.

وتؤكد أن موالاة غير المسلمين (اليهود والنصارى) كفر، ولو أعلن الإسلام.

وتظهر الآيات أن اليهود والنصارى في يثرب يسخرون من الإسلام، ويستهزئون بصوت المنادي للصلاة. وهو ما يعني أن المسلمين قد بدؤوا ينادون بالأذان للصلاة.

وتستمر السورة تصف بعض تصرفات مسلمة يثرب: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْفَمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ {59} قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ {60} وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ {61} وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {62} لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ {63}.

أهل الكتاب في يثرب لم يؤمنوا لأن محمد والمهاجرين ليسوا من بني إسرائيل، وهذه خسة مماثلة لما صدر من أسلافهم الذين لعنهم الله بكفرهم. ومسلمة يثرب كانوا يعلنون إسلامهم أمام الرسول وهم كافرون ويصرون على كل أمر سيء ينهى عنه القرآن، ومن ذلك أكل المحرم "السحت".

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ {64} وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ {65} وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ {66}.

ومن سخرية يهود يثرب بالمسلمين، أنهم كانوا يسمعون دعوات القرآن المتكررة على المسلمين بالإنفاق في سبيل الله وتسليح وتجهيز الجيش المقبل على حرب قريش، ويرون ضعف الاستجابة من فئات المسلمين، فكانوا يقولون أن رب المسلمين بخيل وإلا لأنفق هو على الجيش، ولم يطلب من الناس. (وهو ما ذكرته سور أخرى)

وهذا المنطق الأعوج غير مقبول، لأن الله أودع الرزق في الأرض، وكلف الإنسان برعاية هذه الأمانة. والله جل شأنه ترك الدنيا مشاعة للجميع ويوم الحساب كل يلقي مصيره. ولن تنزل على المسلمين الأموال والأسلحة من السماء، ولكن على المسلمين أن يتسلحوا وينموا اقتصادياتهم، وكل تخاذل في هذا هو عصيان لله.

وتقول الآيات أن أهل الكتاب في يثرب لو أنهم أسلموا، فهذا يعني أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم (القرآن)، ولو أسلموا لتمتعوا بسعادة الدنيا.

وتعود السورة لتكرار تحذير الرسول (والمقصود كافة المسلمين حينها) من الاستماع للإسرائيليات: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {67}. وقد سبق وحذرت منه الآية: 48.

وتعيد السورة تكرار ما ذكرته الآية 66 : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {68}.

فالذي في التوراة والإنجيل سيجدونه في القرآن الذي أنزل إليهم.

وتقول السورة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {69}.

والبشر من أي عقيدة كانت لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، متى ما آمنوا. ومن يريد منهم أن يؤمن في عصر محمد فلا بد أن يتحول للإسلام، لكي يؤمن بالله ويعمل صالحاً. ومن بقي على يهوديته أو صابئيته أو نصرانيته أو غيرها ولم يؤمن بمحمد، فهو لم يؤمن بالله الذي أرسل محمد، ولن يدخل الجنة.

ثم تواصل الآيات: 70- 86 الحديث عن أسلاف أهل الكتاب. وتبدأ بالقول أنه طوال تاريخهم لم يعودوا لدين الله الحق بعد موسى، وكانوا يكذبون ويقتلون الرسل المرسله لهم لتصحيح عقائدهم: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ {70}.

وكان يتخلل تاريخهم رجوع متقطع لدين الله يتبعه ضلال: وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {71}.

وخرج منهم عقائد مختلفة، بعضهم اعتقد أن المسيح ابن الله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ {72}.

ومنهم من قال بالتثليث (الله، عيسى، ومريم): لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {73} أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {74} مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {75} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {76} قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ {77} لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ {78} كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ {79}.

ثم تتحدث السورة عن موقف بني إسرائيل في يثرب، وموالاتهم لقريش ضد المسلمين: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ {80} وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ {81}.

وهذا يعني بداية تحول مواقف بني إسرائيل إلى معاداة الإسلام، والذي سيتنامى مع الأيام.

وأهل الكتاب في يثرب ليسوا سواء في علاقتهم بالمسلمين: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {82} وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ {83} وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ {84} فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ {85} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ {86}.

والآيات تؤكد دخول كثير من نصارى يثرب الإسلام.

ثم تخاطب الآيات: 87-108 المؤمنين في يثرب وتفرض بعض التشريعات التي سألوا عنها:

والبداية مع المأكَل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ {87} وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ {88}.

ثم تبين أن اللغو في الإيمان ليس هو المحرم، ولكن الذي يحرم هم الإيمان المغلظة: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {89}.

فقول "لا والله" أو ما شابه لها ضمن الحديث لا يعتبر يمينا منهي عنه. ولكن الإيمان التي تحرم هي الإيمان المغلظة، مثل قول: "والله العظيم" كتأكيد لأمر. فهذه لو لم يتم الوفاء بما قيلت له،

فيجب كفارة بينها الآية. ويفهم من هذا ضرورة تجنب استخدام الأيمان في كلامنا والتعود على جريانه على ألسنتنا. فالحلف بالله شيء عظيم لا يجب التهاون به أو استسهال استخدامه.

ثم تفرض السورة حكماً للخمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} {91} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} {92}.

وقد ورد ذكر الخمر للمرة الأولى في سورة البقرة، لأن بعض المسلمين سألوا عنه الرسول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} {219}.

وليس في هذا أي تشريع.

ثم ورد في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} {43}.

لأن بعض المسلمين حضروا للصلاة وهم سكرى، وصدرت منهم أقوال غير لائقة. وهذا أيضاً ليس فيه تشريع.

وفي سورة المائدة ورد التحريم للخمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} {91}.

وبرغم وضوح التحريم، بوصف الخمر أنها رجس. والرجس في القرآن وصف للأعمال الوثنية: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} {30} الحج.

والرجس هو وصف للميتة والدم ولحم الخنزير المحرم: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {145} الأنعام.

ومقارنة الخمر بالميسر والأنصاب والأزلام الوثنية، إضافة لأمر الله جل وعلى باجتنابه: "فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

وبرغم كل هذه الأدلة، إلا أن هناك من يتمنى ألا تكون الخمر محرمة فيبحث عن أي مبرر لتحقيق أمنيته. ومن ذلك قولهم أنه لا وجود لتحريم الخمر في القرآن لأنه يخلوا من نص صريح يقول "حرمت عليكم الخمر".

تلك أمانيتهم، فعدم وجود نص التحريم لا ينفي أن تكون الخمر حرام. لأن هناك أمر إلهي بعدم شربها. وعصيان أمر أو نهى إلهي واحد وارد في القرآن، يوازي عصيان أوامر الله ونواهيه كلها.

والنهي الإلهي يوازي نص التحريم، وإلا لأصبح الزنا مباح لأنه ليس في القرآن عبارة: حرم عليكم الزنا، وإنما عبارة مشابهة لتحريم الخمر، وهي: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} {32} بني إسرائيل.

ثم تعود السورة لمواصلة الحديث الذي بدأ في الآيتين: 87- 88 عن المأكل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ {87} وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ {88}.

حيث تقول السورة: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {93}.

فليس هناك موانع في المأكل لمن يؤمن ويعمل صالح، ويتقي، ويحسن بدفع ما يجب عليه من الإنفاق ومعاونة المحتاج (أي يؤدي ما عليه من الإنفاق). ولا علاقة لهذه الآية بتحريم الخمر كما فعل بها المفسرون والمحدثون واعتبروها تخفيف لحكم تحريم الخمر. قائلين أن الله يقول أن من يؤمن ويعمل صالحاً فلو شرب الخمر فلا جناح عليه. (وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

وإلا فالآية تعود بالحديث لما ذكر في الآيتين 87-88، كما ذكرنا لها علاقة بتحريم الخمر.

ثم تتحدث الآيات عن تحريم صيد الحرم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ {94} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لَّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ

عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {95} أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {96}.

وتقول السورة: جَعَلَ اللَّهُ الْكُعْبَةَ الْغُبَىٰ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِنَعْلَمَوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {97}.

وتحذر الآيات المسلمين من تجاوز أوامر الله ونواهيه: اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {98} مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ {99} قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {100}.

ثم تقول السورة للمسلمين في تلك الفترة الذين أكثروا من سؤال الرسول عن حكم أشياء كثيرة، وتقول لهم أن يكتفوا بما يفرض في القرآن، وما سكت عنه القرآن فمتروك لكل فرد، لأنه إذا سئل الرسول فسينزل حكم في القرآن، ولو نزل حكم فهو ملزم وليس للناس خيار بتركه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ {101} قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ {102}.

ويستفاد مما ذكرته الآيتان الكثير، ومن ذلك: أن كل ما لم يذكر له في القرآن حكم فليس من دين الله، فيما عدا ما يقاس على حكم ذكره القرآن. لأن أي تشريع في دين الله مصدره القرآن، وهذا توقف منذ نهت هذه السورة عن السؤال، لأن كل التشريعات الإسلامية فرضت وما عدا ذلك فأسئلة تفصيلية لا يجب على الناس سؤالها. ولكل شخص الخيار في فعلها أو تركها، دون وجل من عقوبة أو ذنب. والسورة تقول: أن الأسئلة التي لا حصر لها التي يسألها الناس لرجال الدين لا يجوز سؤالها لهم لأن القرآن نهى عن السؤال، ولأن المسئول يجيب من عند نفسه. أي يشرع من دون الله، وهو ما لم يتجرأ عليه رسول الله الذي كان ينتظر الوحي ويبتلوه على السائل. ولو قيل أن رجال الدين يستدلون بآيات قرآنية على تشريعهم (فتاويهم) فيقال أن الرسول كان أقرب منهم للقرآن ومع ذلك لم يفعل ما يفعلونه. كان لا يجيب أي سؤال حتى ولو تكرر على مسامعه من قبل بل ينتظر الوحي ينزل بالجواب ويقرأه. الفتوى بنص هذه الآية حرام، وتشريع في دين الله ما ليس فيه. لكن يمكن أن يصدر حكم (قانون) دنيوي ولا يسمى شرعي أو ديني لوضع عقوبة أو حكم لمسألة لم يذكرها القرآن. وهذا الحكم أو العقوبة تؤخذ على أنها دنيوية وليست من دين الله ويمكن تغييرها حسب الظروف. وهذا لا يصدره رجل دين ولا قاض في المحكمة يظن أن كل أحكامه نيابة عن الله. بل يفرض القانون بعد استفتاء عام، كما بينته الشورى في القرآن.

وتنتقد السورة أحكام قريش وتحريمهم لبعض ما يؤكل من عند أنفسهم: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ {103} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ {104}.

وتخاطب السورة المسلمين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {105}. وهذا ما يجب علينا أن نتقيد به. فعلى الشخص أن يصلح نفسه ويتبع ربه وأن يسمع غيره كلام الحق، وبعد ذلك فليس عليهم بوكيل. فمن شاء أطاع ومن شاء عصى، أما هو فعليه بنفسه فقط.

ثم تستكمل السورة ضوابط وشروط الوصية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكُفُّ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ {106} فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ {107} ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُاتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {108}.

وكانت سورة البقرة قد بدأت الحديث عن فرض ضوابط الوصية في الآيات: 180-182.

ولمن يرغب فهناك موضوع عن الوصية في الفيس بوك على هذا الرابط:

<http://www.facebook.com/notes/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D9%82%D8%B1%D9%86%D8%A7%D8%B3/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B5%D9%8A%D8%A9/115089705239560>

وآخر ما تتحدث عنه السورة عيسى ابن مريم ومواقف الناس منه في الآيات: 109-120.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ {109} إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ {110}.

عيسى لم يكن يخلق طيراً، ولكنه كان يخلق من الطين شكل طير، ويطير كما يطير الطائر، ولكنه ليس طائر حي. وهذا مشابه تماماً لما يتقنه بنو إسرائيل، ومن ذلك العجل الذي شكله السامري (أحد بني إسرائيل على شكل عجل، وكان يصدر خواراً كخوار البقر، كلنه ليس مخلوق حي). وهذا دليل آخر على أن عيسى جاء بعد موسى مباشرة، لبني إسرائيل مصر فرعون الذين يجيدون هذه الأعمال السحرية الباهرة. فجاء عيسى بقدرات تشابه ما يتقنون ليثبت لهم أنه رسول من الله، لعلهم يطيعونه ويعودون للدين الصحيح الذي جاءت به التوراة. لكن كثير من بني إسرائيل قالوا عنه ما قال فرعون عن موسى: "إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ".

ولم يؤمن بعيسى سوى نفر قليل: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {111} إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {112} قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ {113} قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {114} قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ {115}.

الله لم ينزل المائدة من السماء حرفياً، وقد يكون عيسى – وبأمر الله ومشيبته – أنزل لهم مائدة وهم ينظرون وكانت مليئة بالطعام، كما طلبوا. كونه يستطيع القيام بمثل هذه الأفعال.

والعيد يعني وليمة، يأكلون منها كلهم: "تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا"، ولا يعني عيد هنا: مناسبة سنوية، لأن المائدة نزلت مرة واحدة فقط.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ {116} مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {117} إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {118} قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {119}.

الآية 116 تصور مشهداً لن يحدث فعلياً، ولكن لتقريب الصورة من العقل. فالله يعلم ما حدث وليس بحاجة للتحقيق مع عيسى يوم القيامة، ولكن الصورة تقدم للناس ليفهموا أن عيسى لا يستطيع أن يقول لهم ما لم يقل به الله.

والآيات تظهر أن هناك بعض من ظهر بعد عيسى وسمعوا بولادته وما كان يفعل فظنوا أنه لا بد أن يكون إله مع الله. وبما أنه إله فلا بد أن أمه إله أيضاً. ويوم القيامة سيدخل المؤمن الجنة وسيدخل المكذب النار.

وتختم السورة: اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {120}.

سورة الماعون

تحدث عن المنافقين، وتقول أن الصلاة والتظاهر بالدين لا يعني أن المرء مسلم، لأن الإسلام يحتاج للإيمان والعمل الصالح والذي في مقدمته الإنفاق: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ {1} فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ {2} وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ {3} فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ {4} الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ {5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ {6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ {7}.

ثم نزلت سورة محمد

والسورة تعطي صورة لما يدور في المجتمع المسلم في المدينة خلال الفترة التي سبقت غزوة بدر، وتبدأ بمقدمة تشدّد بها هم المسلمين ليكونوا في أقصى درجات الاستعداد النفسي والبدني لملاقاة العدو. والتأكيد على أن مشركي قريش على ضلال واتبعوا الباطل، وأن المسلمين عرفوا الحق واتبعوه: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ} {1} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} {2} ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} {3}.

ثم تفرض قواعد وضوابط للمعركة المرتقبة، ضد جيش قريش المعتدي: {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} {4} سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} {5} وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ} {6}.

والآيات السابقة تقول: بما أن جيش قريش يفوق المسلمين عدداً ويتفوق عليهم عتاداً، فيجب على المسلمين قتل أكبر عدد منهم، وعدم أخذ أسرى، لإثخان العدو وإنهاكه.

لأن أخذ الأسرى يعني أنهم سيعاودون قتال المسلمين بعد تحريرهم.

وبعدما يثخن العدو وينهك، يفضل الأسر على القتل. وتفضيل الأسر بعد إنهك العدو لمصلحة المسلمين، فهم مخيرون بين إطلاق سراح الأسير بلا مقابل، وهذا بحد ذاته يعطي انطبعا إنسانياً حسناً عن أخلاق المسلمين، أو يطلق الأسير مقابل فدية، وهذا فيه كسب مادي لدولة الإسلام وإضعاف لاقتصاد العدو " فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً".

إذا، القواعد الحربية الإسلامية تقول: في حال قابل المسلمون عدواً يفوقهم عدداً وعدة، فيجب على المسلمين عدم أخذ أسرى، لأن المطلوب في هذه المرحلة من الصراع هو إضعاف العدو، بقتل كل من يقدر عليه المسلمون منهم.

وإذا دخل المسلمون حرباً مع العدو وهو مثخن وضعيف، فيفضل الأسر على القتل، لأن الأسر فرصة لتأليف قلوب الأسرى للإسلام، ولو لم يسلموا، نتيجة للتعامل الحسن الذي يلقيه من المسلمين. ويمكن للمسلمين إطلاق سراح الأسرى بلا مقابل إن كانت دولة الإسلام غنية، أو إطلاق سراح الأسرى بفدية لدعم الاقتصاد.

ثم تواصل الآيات قائلة أن الله قادر على نصر المسلمين وخذلان المشركين بلا حرب، وهو قادر على كل شيء، لكن القوانين التي يسيّر عليها الكون لن تتغير ولن يتدخل الله بين الناس إلا بالتوجيه والهداية. وعلى المسلمين الأخذ بكل أسباب النصر لينتصروا في الحرب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} {7}.

والآيات تعد المؤمنين بالنصر في نهاية الحرب التي ستمتد بين المسلمين وقريش، والجنة في الآخرة، إن هم نصروا الله وسعوا لذلك، وتتوعد الكافر (قريش) بالهزيمة في الدنيا والعذاب في الآخرة، لأنهم كرهوا ما أنزل الله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ} {8} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} {9}.

وهزيمة قريش حتمية في نهاية المطاف، تبعاً لسنة الأولين التي مرت على كل الأمم الكافرة المحاربة للحق: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} {10} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} {11} إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} {12} وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} {13}.

وتقول السورة أنه لا يستوي المؤمن والكافر (قريش): أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ {14} مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ {15}.

ثم تبدأ السورة بتقديم صور لما كان عليه فئات من المجتمع المسلم في يثرب، ممن لا يرغبون في القتال، قبيل معركة بدر المرتقبة:

1. البعض يؤمّنون على ما يقول الرسول في مجلسه دون اقتناع.

{وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ {16} وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ {17} فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ {18} فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ {19}.

وهؤلاء هم فئة من المنافقين في يثرب، الذين طبع الله على قلوبهم ولن يهتدوا.

2. بعضهم أصيب بالقلق عندما فرض القتال

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ {20} طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ {21}.

وقد عزموا على عدم الخروج للقتال: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ {22}.

و {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ {23} أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {24}.

لأنهم بعزمهم على عدم الخروج ارتدوا عن الإسلام: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ {25} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ {26} فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ {27} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ {28} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْعَانَهُمْ {29} وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ {30} وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ {31}.

3. بعض مسلمة قريش اعترضوا على القتال

وهم الذين يوالون أقاربهم المشركين، وقد أعلنوا على الملأ معارضتهم لحرب قريش، الذين تصفهم السورة بـ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ {32}.

ويتجه الخطاب لمسلمة قريش: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ {33} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ {34} فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ {35} إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ {36} إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ {37}.

فالآية 35 تظهر أن مسلمة قريش كانوا يقترحون عدم الدخول في حرب مع قريش: " فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ". لأنهم يوالونهم ولا يرغبون في رؤيتهم يقتلون أو يتعرضون للهزيمة والذل.

4. ومع أن الإنفاق على احتياجات المعركة واجب كوجوب القتال إلا أن بعض المسلمين تباطأ في الإنفاق، وبعضهم امتنع: {هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {38}.

وكما رأينا منذ نزول سورة البقرة والتي فرض فيها الجهاد وآياتها وآيات سورة النساء بعدها وهذه السورة تحث المسلمين على الاستعداد للخروج وعلى الإنفاق لتسليح الجيش وتجهيزه. ولكن فئات كثيرة من المسلمين لم يكونوا متحمسين للخروج، وبعضهم كأنهم يسحبون على وجوههم للموت، وبعضهم يعلنون أنهم لا يرغبون في قتال قريش. وآخرون لا ينفقون، وغيرهم ينفق القليل، وأناس ينفقون أسوأ ما لديه. وهذه الصور التي كان عليها المسلمون في يثرب لم تكن مشجعة ولا مثالية قبيل أول معركة مصيرية للمسلمين ضد قريش التي تحاول القضاء عليهم وعلى دينهم. وهي صورة مخالفة لما ذكرته كتب التراث التي تصور المسلمين على أنهم هم من كان يلاحق قريش ويُغَيَّرُ على قوافلها التجارية، وكانوا تواقين للقاء العدو.

وفي مثل هذه الظروف الغير مستقرة والقلقة نزلت سورة الصف التي تشابه فيما تتعرض له سورة محمد السابقة، فالحديث لازال عن حث الناس للخروج للحرب وعلى الإنفاق. والسورة تخبرنا عن مواقف المسلمين المتناقضة من الخروج للقتال، الذي حدثتنا عنه سور سابقة.

ففي سورة محمد السابقة ذكر أن هناك بعض المسلمين الذين يعلنون موافقتهم لما يطرح في مجلس الرسول حول المعركة المرتقبة، وإذا خرجوا من عنده بدلوا أقوالهم: {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} {16} وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} {17}.

وسورة الصف تبدأ الحديث عن أولئك: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {1} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} {2} كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} {3}.

وتشدد على أن النصر يحتاج لإخلاص وبسالة وليس لكثرة العدد: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} {4}.

ولأن هذه الفئة من مسلمة يثرب، فهي تذكرهم بمواقف مشابهة لأسلافهم مع موسى وعيسى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {5} وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} {6}.

ونتوقف عند ما ذكرته الآية 6 من أن عيسى بشر بني إسرائيل الذين أرسل لهم بمجيء رسول يأت بعده مباشرة اسمه أحمد. وقد حوله المفسرون على أنه محمد رسول الإسلام. ومحمد اسم وأحمد اسم آخر لا علاقة له به سوى بالجزر الذي يشترك فيه معهما أسماء كثيرة مثل محمود وحامد وحمد وحمدان وحمدى... الخ وهذا لا يعني أنها اسم واحد، بل أسماء مختلفة. ثم إن عيسى بعث لبني إسرائيل ليعيدهم لحكم التوراة، ومما قاله لهم لكي يصدقوا أنه رسول من الله: أنه سيبعث فيهم بعده رسول آخر وحدد لهم اسمه ليثبت لهم صدقه. وكان هذا بعد عصر موسى مباشرة. وقد بعث في بني إسرائيل العديد من الرسل بعد عيسى وأحمد اللذين سبقا عصر داود وسليمان.

وأحمد بشر به عيسى بني إسرائيل، كواحد من رسلهم، ولا علاقة لمحمد ولا لقريش به. لأن قريش في مكة منذ أيام إبراهيم، بينما بشرى عيسى كانت موجهة لبني إسرائيل في مصر، في

عصر موسى وعيسى. ولا يمكن أن يبشر عيسى بني إسرائيل بمجيء محمد لقريش، لأن الغاية من بشرى عيسى هي تأكيد صدقه، وأن ما يقوله لبني إسرائيل، هو ما علمه الله. ومن ذلك أنه سيأتيهم رسول بعده اسمه أحمد، وسيأتي بعده مباشرة، وليس في وقت ما. كما أن أحمد مرسلًا لبني إسرائيل وليس لغيرهم.

وكون عيسى علم أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد، ويستطيع أن يخبر بني إسرائيل بما في بيوتهم، لا يعني أنه يستطيع أن يعلم الغيب، ويتنبأ بمجيء رسول يبعث في مكة بعد زمن طويل جداً. لأنه لا فائدة من أن يعلم ذلك، فكل قدراته فوق عادية تهدف لإثبات أنه رسول من الله لبني إسرائيل، وليس لقريش علاقة بذلك. مثلما أن إرسال محمد لقريش في عصور لاحقة لا علاقة لبني إسرائيل زمن عيسى به.

وكبشر فعيسى لا يمكن أن يكون على علم بمجيء محمد، بل لا يمكن أن يكون قد علم بمجيء سليمان وداوود، ولا أي رسول آخر من الرسل الكثر لبني إسرائيل بعده، ما عدا أحمد، لأن الله أبلغه بذلك، كبرهان على صدق رسالته لمن عاصره. أما البقية من رسل بني إسرائيل فسيُرسَلون بعده بزمن طويل، ولا حكمة في إبلاغه عنهم.

وعلى القراء أن يتذكروا أن البيئة التي ولد فيها عيسى وموسى عربية اللسان، واسم أحمد عربي مثل كل أسماء بني إسرائيل كموسى، عيسى، يحيى، زكريا، هارون، إبراهيم، إسماعيل، وإسحاق. أما نطق موشي، عيسو، زكريا، آرون، أبرهام، إسماعيل، ويتسحك، فهو نطق فيه عجمة اكتسبها بنو إسرائيل في وقت لاحق من تاريخهم، وبعد شتاتهم، عندما اختلطت ألسنتهم بلغات أخرى، فأصبحت عربيتهم خليط من مفردات لغات شتى، دون قواعد وضوابط خاصة بها.

ونعود لسورة الصف التي تتجه بالحديث عن قريش التي تحاول إلصاق تهم وكلام لم يقله محمد به ونشره بين الناس للصد عن الإسلام، وتؤكد أن نور الله سيبقى وأن رسول الله أرسل به ليظهر على كل العقائد: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {7} يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {8} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ {9}.

ولأن الناس متعلقون بالأمر الديني والمادي، تنبههم السورة إلى أن هناك ما هو أكثر ربحاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {10} تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {11} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {12}
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {13}.

ولأن هناك مسلمون من النصارى فالسورة تحثهم على أن يقتدوا بأبائهم الأولين الذين آمنوا بعيسى وناصروه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ {14}.

لقد كانت سورتا محمد والصف آخر ما نزل قبل خروج المسلمين لملاقاة عدوهم قريش في بدر، والسورتان تظهران أن المسلمين لم يكونوا بأحسن حالاتهم، فهناك من لا يرغب في القتال خوف الموت لأنه غير متيقن من الآخرة. وهناك من لا يرغب في قتال قريش الذين يكن لهم المودة ولا يريد أن يرى أحداً منهم قد قتل. وهناك من لا يرغب في الإنفاق على تجهيز الجيش مع قدرته، وهناك فئات أخرى لا ترغب في القتال لأسباب مختلفة.

ولعل من المفيد أن نلخص الحديث عن بني إسرائيل قبل معركة بدر، كما يلي:

لقد كانوا عدة أصناف يعيشون في يثرب عند هجرة رسول الله.

بعضهم ممن غادر مصر في الشتات الأول، عندما تعرضت لغزو خارجي بعد عصر موسى وعيسى، وهؤلاء هم الأكثرية، ويتكونون من ثلاث قبائل مشهورة هي: بنو النضير، بنو قينقاع، وبنو قريظة. وقد أبقوا على لغتهم الأم "العربية"، كما احتفظ رجال دينهم ببعض نصوص التوراة كما نزلت على موسى بلغتها الأصلية العربية. وإن كان هذا لا يعني أن عقائدهم كانت سليمة، بل دخلها الكثير من البدع، واتبعوا ما اختلقه رجال الدين ونبذوا "كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

وهناك من استقر في يثرب من الموجة الثانية من هجرة وشتات بني إسرائيل بعد تدمير المملكة التي أسسها داوود، وقضي عليها فيما بعد بسبب غزوة خارجية. وهؤلاء، بعضهم تمسك بعقائد بني إسرائيل الأوائل. قلة على الحق، والباقي استحدثوا في الدين ما ليس فيه. وبعضهم اعتقد بمذهب جديد وتسموا باليهود، وهؤلاء بعضهم يعتقد أن عزيز – أحد أنبيائهم – كان ابن الله، والبعض يؤمنون بوحدانية الله ولكن عقائدهم فاسدة.

وممن استقر في يثرب بعد الموجة الثانية للشتات، من تسموا بالنصارى. قلة منهم من سلالة من آمن بعيسى ابن مريم، لكنهم استحدثوا في الدين ما ليس فيه، مع احتفاظهم ببعض تعاليم الإنجيل.

وأغلبهم يعتقدون بأن عيسى ابن الله، وأمه إله ثالث معهم. وبرغم أنهم يؤمنون بالتثليث، فهو يختلف بشكل جذري عن تثليث من يسمون اليوم بالمسيحيين، ذلك أنهم يعتقدون بتثليث مكون من الأب، الابن (يسوع)، والروح القدس.

لأن النصارى لا يعرفون يسوع، وليس في عقيدتهم إله اسمه روح قدس، كما أن المسيحيين لا يعرفون عيسى، وليس في عقيدتهم إله اسمه أم عيسى. ونحن هنا نتحدث عن أصل عقيدة المسيحيين، ولا علاقة لحديثنا بالتطورات اللاحقة، حيث يوجد اليوم كنائس مسيحية تسمى كنيسة العذراء أو مريم أو أم الإله. وهي كنائس مستحدثة، ولا تؤمن بعيسى، ولكن بيسوع.

وكانت كل فرقة من فرق من بني إسرائيل في يثرب لا تتفق مع غيرها: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} {113} البقرة.

ومواقف غالبية بني إسرائيل، بأصنافهم المتعددة، الإعراض عن دعوات القرآن المتكررة لهم، وسخريتهم من الإسلام والمسلمين والأذان والصلاة، إلا أنه حتى معركة بدر لم يصدر من بني إسرائيل – يهوداً أو نصارى - في يثرب ما يعتبر تصرفات عدائية، لذا أحل للمسلمين طعامهم والزواج بنسائهم. لكن هذا الصفو لن يصمد طويلاً.

وقد توقف دخول بنو إسرائيل الإسلام منذ قدم رسول الله مهاجراً إلى المدينة، برغم أن من أسلم منهم في مكة قبل الهجرة كانوا فاتحة خير على الإسلام والمسلمين. فقد دعوا للإسلام في يثرب، وآمن بدعوتهم الكثير من الأوس والخزرج وقلة من قومهم.

فيما عدا النصارى الذين يؤمنون بوحدانية الله: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} {82} المائدة.

والنصارى الموحدون والذين يؤمنون بالتثليث ومعهم اليهود الموحدون والذين يؤمنون بأن عزيز ابن الله، كانت أعدادهم قليلة، ولا وجود لهم خارج يثرب في الغالب، لذا مع تطور الأحداث في المدينة فيما بعد، غادر جلهم يثرب مع بني إسرائيل الآخرين، وسرعان ما انتهى وجودهم وذابوا في مجتمعات بني إسرائيل التي استقروا فيها.

كما انتهى أمر بقية التوراة العربية التي كان رجال بني إسرائيل يحتفظون بها في يثرب، لتحولهم عن لغتهم العربية إلى لغات اليهود وعقائدهم الذين استقروا بينهم فيما بعد جلائهم، والذين كانوا يؤثرون ويسيطرون على عالم ودين بني إسرائيل في العالم.

ونكون قد وصلنا إلى نهاية لقاء اليوم، على أمل أن نلتقي بإذن الله مع اليوم رقم 17 وما حدث قبيل معركة بدر وأثناء المعركة وما بعدها.

والسلام عليكم

ابن
فقرناس